

الزجل الأندلسي وعلاقته بالموشحات - مقارنة أسلوبية لأزجال ابن قزمان -

*The Andalusian Zajal and its Relationship to the Muwashahat
A stylistic approach to Ibn Qazman's Zajal*

سعيدة فريد *

تاريخ الإرسال: 2020/06/26	تاريخ القبول: 2020 / 11 / 08	تاريخ النشر: 2021 / 03 / 30
---------------------------	------------------------------	-----------------------------

الملخص:

يعد فن الزجل من الفنون المستحدثة التي ظهرت في الأندلس وجاء ظهوره بعد الموشحات ليحدث إشكالية لدى النقاد حول نشأته وعلاقته بالموشح ، وكان ابن قزمان من أشهر زجالي الأندلس في تلك الفترة ، فالزجل لم تكتمل معانيه ولم تنضج إلا على يده ، فقد كان بحق إمام الزجالين كما لقبه ابن خلدون ، وتهدف هذه الدراسة إلى إبراز مفهوم الزجل وعلاقته بالموشحات من حيث النشأة واللغة والبناء ، تتبعها دراسة تطبيقية لنماذج من أزجال ابن قزمان استخدمت فيها المنهج الأسلوبية .

الكلمات المفتاحية: الزجل الأندلسي - الموشحات - ابن قزمان - الأسلوبية

المؤلف المرسل: سعيدة فريد . frid.saida@yahoo.com

* جامعة البليدة 2 . frid.saida@yahoo.com

Abstract:

The art of Zajal is one of the new arts that appeared in Andalusia. Its appearance came after the Muwashahat where it caused a number of questions within critics about its origins and its relationship with Al-Muwshah. Ibn Qazman was one of the most famous Zajal poets of Andalusia in that period. Zajal got to a mature state because of his contribution. He was called by Ibn Khaldoun as the Leader of Zajal Poets. This study aims to highlight the concept of zajal and its relationship to Muwashshahat in terms of origin, language and construction. It is followed by an applied study of models from the time of Ibn Qazman in which the stylistic method was used.

Key words: Andalusian Zajal - Muwashahat - Ibn Qazman - Stylistics

*** **

. مقدمة:

إن فن الزجل من الفنون التي لقيت رواجاً كبيراً عند ظهورها في الأندلس ، إذ تعد فناً شعبياً خالصاً يمثل أفكار الشعوب وهمومها وتطلعاتها وآمالها ، إلا أنه لم ينل حظه من الدراسة والتحليل ، وذلك بسبب صعوبة دراسة اللغة العامية التي يعتمد عليها في الكتابة ، والتي لا تخضع لقواعد اللغة العربية الفصحى ، ويسجل التاريخ أن الزجال ابن قزمان هو إمام الزجالين ، وهو من طور هذا الفن وهذبه وقدمه للعامية ، إلا أن الباحثين اختلفوا في تحديد أصل الزجل فهناك من نسبته للأغنية الشعبية التي كانت تغنى في الأسواق ، والتي تمزج بين اللفظ العامي والأعجمي ، وهناك من يعتقد أنه نشأ تقليداً لفن الموشحات خاصة وأنه يشبهها من حيث البناء ، ولهذا يهدف البحث إلى إزالة هذا اللبس حول نشأة هذا الفن والتعريف به وكذلك دراسة أرجال ابن قزمان ومدى علاقتها بالموشحات ، وإبراز جمالية الخطاب الشعري عنده معتمداً في ذلك على المنهج الأسلوبى باعتباره منظومة تحليلية مكتملة الأدوات تهدف إلى تحليل الخطاب الشعري ، وتحديد العلاقة الرابطة بين ما هو حدث تعبيرى ، وما هو مدلول لهذا الحدث في صياغته اللغوية ونسيجه الأسلوبى ، وهي من خلال ذلك تفكك الخصائص اللغوية التي يتحول بها الخطاب من سياقه الإخبارى إلى إحداث وظيفته التأثيرية والشعرية .

قليلة هي الدراسات التي تناولت فن الزجل نذكر من بينها كتاب " تاريخ الأدب الأندلسى في عصر الطوائف والمرابطين " لإحسان عباس وكتاب " الزجل في الأندلس "

لعبد العزيز الأهواني وكتاب "الموشحات والأزجال الأندلسية في عصر الموحدين" لفوزي سعد عيسى ، وأهم إشكالية يواجهها البحث هو أصل الزجل وعلاقته بفن الموشحات من حيث النشأة واللغة والبناء ، فما هو فن الزجل ؟ وما علاقته بفن الموشحات ؟ وكيف تطور هذا الفن ؟ وماهي أبرز خصائصه الأسلوبية؟.

2- مفهوم الزجل :

1.2.المفهوم اللغوي :

الزجل في اللغة هو رفع الصوت والتطريب " يقال زَجَلَّ زَجَلًا طَرَّبَ وَتَغَيَّ وَرَفَع صوته وأجلب ، وَزَجَلَّ الجن عزيها ، وَالزُّجْلَةُ جمع زُجَلٍ : الجماعة من الناس ، وَالزُّجْلَةُ جمع زَجَلَاتٍ : صوت الناس وضجيجهم"1

وقد ورد في لسان العرب لابن منظور تحت مادة زَجَلَّ : "إن الزجل بالتحريك ، اللعب والجلبة ورفع الصوت ، وخص به التطريب"2

وعرفه صفي الدين الحلي بقوله : "الزجل في اللغة الصوت ، ويقال سحاب زجل ، إذا كان فيه الرعد ، ويقال لصوت الأحجار والحديد والجماد أيضا زجل"3

2.2. المفهوم الاصطلاحي :

الزجل فن شعري شعبي يتخذ من العامية منهجا له لأداء أغراض الشعر المتعدد ، وذلك نتيجة لتطور المجتمع الأندلسي ، عرفه ابن خلدون ، بقوله : " فن العامة بالأندلس من الشعر وفيها نظمهم حتى أنهم لينظمون بها في سائر البحور الخمسة عشر لكن بلغتهم العامية ويسمونه الشعر الزجلي"4 ، وتعقبيا على كلام ابن خلدون ، قدم د. ابراهيم أنيس التعريف التالي : "شعر نظم بلغة العامة ولهجة كلامهم لا يراعى فيه قواعد الإعراب ، ولا الصيغ الصحيحة للكلمات ، بل ينظمونه من الكلام الدارج و ألفاظ الكلام العادي الذي يدور بينهم في الحديث على نحو ما هو شائع حتى الآن في العربية"5 ، وقد عرفه د. فوزي عيسى بقوله : "فن أندلسي النشأة ، نما وترعرع في الأندلس ، ثم انتقل بعد ذلك إلى المشرق شأنه في ذلك شأن الموشحات"6

وورد في تعريف د. محمد عباسة بأنه : "ضرب من ضروب النظم يختلف عن القصيدة من حيث الإعراب والقافية كما يختلف عن الموشح من حيث الإعراب ولا يختلف عنه من جانب القافية إلا نادرا"7

ويرى د. عباس الجراري أن لفظ الزجل "كان في الأصل يطلق على النوع الشعبي ، ثم أطلق على النوع الشبيه بالتوشيح لفظ هزل ، ثم اختلط اللفظان فيما بعد ، وقد شاع لفظ الزجل للدلالة على ما ينظمون من شعر بالعامية "8 وبناء على ما تقدم من تعريفات مختلفة لفن الزجل أرى أنه فن استحدث من قبل العامة وينظم بلغتهم الدارجة ، لا يراعى فيه قواعد الإعراب .

3- نشأته وتطوره :

1.3 نشأته :

تباينت آراء الباحثين حول نشأة هذا الفن ، إلا أنهم اجمعوا على أنه أندلسي النشأة ظهر في الأندلس ثم انتقل إلى المشرق شأنه في ذلك شأن الموشحات ، ويرى د. عبد العزيز الأهواني : " أن الزجل يرجع في نشأته إلى أواخر القرن الرابع الهجري حيث عاش عبادة بن ماء السماء ، ويوسف بن هارون الرمادي وهما اللذان أدخلتا التغيير على التوشيح حسب نص ابن بسام في الذخيرة"9 ، وسنفصل في نشأته وعلاقته بالموشحات في المبحث الرابع .

2.3 تطوره :

مر الشعر الأندلسي بثلاث مراحل : المرحلة الأولى -حسب د. مصطفى الشكعة – "هي مرحلة الفصحح الذي استمر وسوف يستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، المرحلة الثانية هي مرحلة إدخال العامية إلى الشعر مع تحوير في بناء القصيدة وتعدد الأوزان والقوافي وهي مرحلة الموشحات ، المرحلة الثالثة هي مرحلة قول منظومات عامية تلتقي مع رغبات العامة ومن لا يجيدون العربية من أبناء البلاد وملوك البربر عرفت بالزجل "10 ، وبدوره مر الزجل بثلاث مراحل قبل أن يصل إلى شكله النهائي:

1.2.3 مرحلة الأغنية الشعبية :

يرى الكثير من الدارسين أن الزجل بدأ بالأغنية الشعبية لذلك ضاعت أصوله فمؤلفه مجهول من العامة ، ولما كانت الموشحات خاصة بطبقة المثقفين وتغنى بلغة فصيحة اضطر عامة الشعب لتأليف فن شعري خاص بهم ، يتلاءم مع أفكارهم وتطلعاتهم فتمثل في الأغنية الشعبية التي شاعت على ألسنة الناس منذ أواخر القرن الثالث و " لأن الأغنية الشعبية تضل في العادة ، ولا بد أنه مضى وقت غير قصير قبل أن

ينتقل هذا اللون من الشعبية الخالصة إلى يد الفرد الزجال الذي يمنحه قوة في شخصيته وتفننه"11. ولذلك لم نجد نماذج مبكرة من الزجل إلا في منتصف القرن الخامس ، عندما نشأت طبقة الزجالين التي خلفها ابن قزمان .وترجع نشأة الأغنية الشعبية إلى" ما قبل اختراع الموشحات في أواخر القرن الثالث الهجري ولعلها ظهرت في الأندلس بشيوع لغة التخاطب غير المعربة بين العامة ، وعندما اخترعت الموشحات تأثرت ببعض أشكالها ثم تطورت بذلك وسميت بالزجل "12 ، وكما سبق وأن ذكرنا ضاعت أغلب نماذج هذه المرحلة من الأزجال ، لأن المؤلف غالبا ما يكون مجهولا من العامة.

2.2.3 مرحلة الزجل المعرب (قبل ابن قزمان) :

وهي مرحلة تجديد لتلك الأغاني الشعبية ، وذلك بوضع الأصول والقواعد لهذا الزجل ، وقد جاء تابعا في النشأة لزجل العامة ، وقد حاول هؤلاء الزجالين مقارعة الوشاحين في ذلك العصر بفن مغاير يميزهم ، إلا أنهم وقعوا في الإعراب وهذا ما عابه عليهم ابن قزمان في مقدمة ديوانه "المتقدمين" وهي اللفظة التي أطلقها عليهم حين قال : " لقد رأيت الناس يلهجون بالمتقدمين ويعظمون أولئك المتقدمين يجعلونهم في السمك الأعزل ، ويرون لهم المرتبة العليا والمقدار الأجلز وهم لا يعرفون الطريق ، ويدررون القبلة ويمشون في التغريب والتشريق ، ويأتون بمعان باردة وأغراض شاردة وألفاظ شياطينها غير ماردة ، والإعراب وهو أقبح ما يكون في الزجل وأثقل من إقبال الأجل "13 .

ولم يشهد ابن قزمان لأحد من الزجالين الذين كانوا قبله بأنه كان مجيدا لفن الزجل ومتفوقا فيه باستثناء الشيخ الأخطل ابن نمارة الذي تميز بسلاسة طبعه ، وإشراق معانيه وتصرفه بأقسام الزجل وقوافيه ، وقد أثنى عليه حين قال : " ولم أر أسلس طبعا وأخصب ربعا ، ومن حجوا إليه وطافوا سبعا ، أحق بالرياسة في ذلك والإمارة من الشيخ الأخطل ابن نمارة ، فإنه نهج الطريق وطرق فأحسن التطريق ، وجاء بالمعنى المضيء والغرض الشريق ، طبع سيال ومعان لا يصحب بها جهل الجهال ، يتصرف بأفاسيمه وقوافيه تصرف البازي بخوافيه ويتخلص من التغزل إلى المديح بغرض سهل كلام مليح"14

ويرى صفي الدين الحلي في كتابه العاقل أن هؤلاء الزجالين أرادوا النظم على بحور الشعر العربي وبقافية واحدة ، حيث يقول : " وأول ما نظموا الأرزجال جعلوها قصائد وأبياتا مجردة في أبحر عروض العرب بقافية واحدة كالقريض لا يغيره بغير اللحن العامي وسموها القصائد الزجلية"15

3.2.3 مرحلة المرابطين (ابن قزمان) :

في هذه المرحلة ظهر عدد من الزجالين أبرزهم ابن قزمان الذي ذكره ابن خلدون في مقدمته ، وهو يعد إمام الزجالين على الإطلاق ، وكان ذلك في نهاية عهد ملوك الطوائف وقيام دولة المرابطين بالأندلس في نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس الهجري ، ولأن المرابطين كانوا من البربر كانت لغتهم العربية ضعيفة فتراجعت الموشحات وقصائد الشعر الفصيح ، وحل محلهم الزجل ، وحظي بمكانة مميزة عند الأمراء مما ساعد على ازدهاره وتطوره ، ومن أشهر الزجالين في هذه المرحلة كما ذكر ابن خلدون بالإضافة إلى ابن قزمان ، عيسى البليدي ، وأبو عمرو بن الزاهر الإشبيلي وأبو الحسن المقري الداني ، وسنفضل في مميزات هذه المرحلة مع الزجال ابن قزمان لاحقا .

4.2.3 مرحلة الموحيدين (بعد ابن قزمان) :

بعد وفاة إمام الزجالين ابن قزمان عام 555 هـ وسقوط دولة المرابطين قامت دولة الموحيدين والتي ازدهر فيها الزجل على يد الزجال المعروف باسم مَدغليَّس ، واسمه أحمد ابن الحاج وهو الذي قال فيه المقري : " كان مَدغليَّس هذا مشهورا بالانطباع والصنعة في الأرزجال ، خليفة ابن قزمان في الزجالين في زمانه ، وكان أهل الأندلس يقولون ابن قزمان في الزجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء ، ومَدغليَّس بمنزلة أبي تمام بالنظر إلى الانطباع والصناعة فابن قزمان ملتفت إلى المعنى ومَدغليَّس ملتفت إلى اللفظ ، كان أدبيا مُعربًا لكلامه مثل ابن قزمان ، ولكنه لما رأى نفسه في الزجل أنجب اقتصر عليه"16 كما ظهر عدد من الزجالين في هذه المرحلة كابن الزيات وابن جحدر الإشبيلي وأبو الحسن علي بن محمد الشاطبي وأبو الحسن سهل ابن مالك إمام الأدب إلا أنهم لم يرتقوا لمنزلة مَدغليَّس وابن قزمان .

وقد تميزت هذه المرحلة من الأزجال ، بالتقليل من تعدد الفقرات والقوافي ، أما موضوعاتها غلب عليها الغزل ووصف الطبيعة ، ولما بدأت بوادر سقوط الأندلس تلوح في الأفق عزف الناس عن الزجل وانشغلوا بالاستعداد للحرب ، مما أدى إلى ظهور الأدب الصوفي المناسب لمثل هذه الظروف الصعبة ومن أعلامه محي الدين ابن عربي وتلميذه أبو الحسن الششتري ، وكان أول من استخدم الزجل في التصوف .

5.2.3 مرحلة سقوط الأندلس :

تراجع الزجل في تلك الفترة ولا نكاد نجد أسماء لزجالين بارزين ، وذلك لأن أهل الأندلس كانوا منشغلين بغرناطة آخر معقل للعرب ، بعد استيلاء الإسبان على جزيرة ايبيريا ، وبسبب الأوضاع السياسية انعدم التدوين وضاعت أغلب أزجال تلك الفترة ، إلا أن أشهر زجالي هذه المرحلة نجد لسان الدين ابن الخطيب فقد كان أديبا وشاعرا وسياسيا بارزا ، وزجالا أيضا إلا أنه كان يهتم بالموشحات أكثر من اهتمامه بالزجل .

4- علاقة الزجل بالموشح :

1.4 من حيث النشأة :

اختلف الباحثون في تحديد أصل الزجل ، منهم من يعتقد أن الزجل نشأ تقليدا للموشح ، ومنهم من يرى أنه مصدر للأغنية الشعبية التي تمزج بين اللفظ العامي والأعجمي ونفى تأثير الموشحات عليه :

ومن بين الباحثين الذي أكد أن الزجل ظهر متأخرا عن الموشح ابن خلدون ، وحول نشأته يقول في المقدمة : " ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس ، وأخذ به الجمهور لسلاسته ، وتنميق كلامه ، وترصيع أجزائه نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعرابا ، واستحدثوا فنا سموه بالزجل ، والتزموا النظم فيه على منحهم لهذا العهد فجاءوا فيه بالغرائب واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة"17 .

وقد ذهب إلى هذا الرأي أيضا ابن سعيد ، والمقري ، ويرى د. فوزي العيسى تعقيبا على كلام ابن خلدون على أن الزجل " وليد الموشح وتابعه ومقلده ، وثمة شواهد كثيرة تؤيد هذا الرأي فالزجالون يقتفون أثار الموشح في البناء والشكل والأوزان والقوافي ، والزجالون يعارضون الموشحات المشهورة ، ويذكرون أسماء الوشاحين

ويستعيرون خرجاتهم ويطرقون الموضوعات التي طرقتها حتى لا يكاد الزجل يختلف عن الموشح إلا في استخدامه اللغة العامية ، وفي بعض الفروق في أقاله وقوافيه "18 وقد تبني هذا الرأي أيضا د. مصطفى الشكعة ، الذي يرى أن الزجل ظهر بعد قدوم الموشح وبعد أن احتل مكانا مرموقا في الأندلس " خاصة وأن النصوص الزجلية التي وصلت إلينا قد كتبت بعد أن كانت الموشحات قد احتلت مكانتها العتيقة وثبتت أقدامها ورسخت أركانها في المجتمع الأدبي الأندلسي والفارق الزمني بين ظهور الموشحات ظهور الزجل هو نفسه الفارق الزمني بين عبادة بن ماء السماء صانع الموشحات الرقيقة وبين أبي بكر محمد ابن عيسى ابن قزمان ، وعبادة توفي سنة 422هـ ، وابن قزمان توفي سنة 555هـ"19

بينما يرى د. جودت الركابي أن الموشحات كانت السبب الرئيسي في ظهور فن الزجل وبالتالي هي أسبق منه " وكانت الموشحات قفزة من القفزات التي أدت إلى الشعر الشعبي العامي المسمى بالزجل"20 .

بينما يرى فريق ثاني أن الزجل أسبق من الموشحة ويستدلون على كلام ابن بسام حين قال : "... وكان يضعها على أشطار الأشعار ، غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة ، يأخذ اللفظ العامي والعجمي ويسميه المركز ، ويضع عليها الموشحة دون تضمين فيها ولا أغصان"21 ، ويفهم من كلام ابن بسام أن الموشحة تستند إلى المركز أو ما يصطلح عليه بالخرجة ، والتي لا تكون إلا باللغة العامية ، وهذا حسيم أكبر دليل على أن الزجل سبق الموشح و ظهر نتيجة تأثره بالأغاني الشعبية وليس بالموشحات.

ومن بينهم المستشرق الإسباني انخل جونثالث بالنثيا الذي يؤكد أن : "الزجل والموشحة في واقع الأمر فن شعري واحد ، لكن الزجل يطلق على السوقي الدارج منها ، إذا لابد أن يكون في اللغة الدارجة فقد كان يتغنى به في الطرقات ، أما الموشحة فلا تكون إلا في العربي الفصح"22 ، فلفظ الموشحة حسب بالنثيا يطلق على المهذب من الزجل الذي تستعمل فيه الفصحى ، أو ينظم بأسلوب أرفع من أسلوب الأرجال .

واستدل على كلامه بما ورد في كتاب ابن بسام في كتابه "الذخيرة" وذهب إلى القول : " أن ابن سعيد ابن عبد ربه بن عم صاحب العقد الفريد كان أول من نظم

الأزجال ، وكان معنيا بكتابات الإغريق ، وعلوم الأوائل ، والفلسفة ، وكان صعب العشرة يتكلم لغة دارجة خشنة واجتهد في تجويد الأزجال يوسف هارون الرمادي شاعر المنصور"23

بيد أن ابن بسام –بحسب د.محمد عباسة – لم يتحدث عن الزجل وإنما كان يتحدث عن الموشح ، ونلاحظ أن بالنثيا خلط بين الموشح والزجل ، كما أنه تقصد الخلط بينهما حتى يرجع الموشح والزجل إلى أصول اسبانية "فهو يلبي بذلك دعوة خوليان ربيرا إلى الأصل الإسباني للموشح والزجل ، ولذلك نجده يحذف كلمة موشح ويضع محلها كلمة زجل حتى يوهم الناس بأن الزجل أسبق من الموشح"24 .

نفس الرأي تبناه أيضا د.إحسان عباس حيث نجده يؤيد نظرية ربيرا في نسب الزجل إلى الأغنية الشعبية التي كان يتغنى بها السكان الأصليون ، "وبخاصة حين اختلط الفريقان في المدن واشتركوا في إقامة الأعراس والحفلات ، واحتاجوا إلى الأغاني الشعبية التي يرددونها في تلك الحفلات"25 وبما أن الأغنية الشعبية سبقت الموشحات ، فإن الزجل أقدم منها ، وسار د. شوقي ضيف أيضا في نفس الاتجاه حين قال : "أن الزجل نشأ مع الموشح ، وربما سبقه ، ويمكن أن نقول أنهما جميعا فن واحد ذو شعبتين شعبة تغلب عليها الفصاحة وشعبة تغلب عليها العجمة"26 ، ونفس الرأي تبناه د. عبد العزيز الأهواني الذي يرى : " أن الزجل ظهر في الوقت الذي أخذ فيه التوشيح يتجه إلى التعقيد والتكلف وابتعد عن البساطة الأولى"27

ولو أردنا التوفيق بين هذه الآراء المتضاربة نجد أن للأغنية الشعبية دور في نشأة الزجل ، فقد كانت تغنى بلغة عامية في الأسواق على عكس الموشحات التي كانت تغنى بلغة فصيحة في قصور الأمراء ، غير أننا لا نستطيع أن ننكر دور الموشح في نشأة الزجل فقد تأثر كثيرا به وقلده في أجزائه وتراكيبه حتى وإن اختلف عنه في اللغة ، مما أدى إلى نضوجه على يد الزجال ابن قزمان ، لذلك يمكن اعتباره فنا مستحدثا من الموشح .

2.4 من حيث اللغة:

يختلف الزجل عن الموشح في اللغة فالزجل يكتب لغة عامية بينما الموشح ينظم بلغة فصحي وحول هذا الأمر يقول المستشرق البريطاني صامويل ستيرن : " الموشح قصيدة ذات مقاطع مكتوبة بالعربية الفصحى ، على حين أن الزجل هو القصيدة

نفسها مكتوبة بعامية أهل اسبانيا العربية "28، نفهم من هذا الكلام أن الموشح والزجل يتفقان في كل شيء ما عدا اللغة ، ويضيف " قد تكون لغة هذا الشعر فصحي أو عامية ، فإن كانت الأولى نحن بصدد جنس الموشح ، وإن كانت الثانية فنحن من جنس الزجل ، ومع ذلك فالموشح والزجل لا يختلفان في مقومات بناءهما إلا في اللغة التي يستخدمانها ، بل وأكثر من هذا يأتي في آخر الأول غالبا نوع من "الارتكاز" الخرجة يتألف عادة من بيتين وينصرف عن استخدام الفصحي إلى عامية عربية أو حتى رومانشية "29.

إذا فالزجل يتشابه مع الموشح في لغة الخرجة التي تكون غالبا باللغة العامية أو الأعجمية " ولما كانت الخرجة في الموشح عامية أو أعجمية كانت أهم شيء فيه من حيث الالتفات المفاجئ للاتجاه نحو الختام ، ولكن الزجل عامي كله تخالطه أحيانا ألفاظا أعجمية فإذا لم يكن على مثال الموشح، احتال فيه الزجال على حركة الختام كأن يعلن أن الزجل قد انتهى وجاء مليحا"30 .

3.4 من حيث البناء :

الزجل - كالموشحة - "قد يبدأ بالمطلع أو يخلو منه ، ثم تأتي بعد ذلك الأبيات بأدوارها وأقفالها حتى ينتهي الزجل بالخرجة التي تتفق مع سائر أجزاء الزجل في التزام اللغة العامية"31 ، إذا يتشابه الموشح مع الزجل حيث يبني كل منهما من المطمع والأبيات والأقفال والخرجة ، إلا أن بناء المطمع في الموشح يختلف عن بنائه في الزجل "فمن المعروف أن عدد الأجزاء في مطالع الموشحات هي نفسها عدد الأجزاء في الأقفال التالية بما في ذلك الخرجة ، ولكن أزجالا كثيرة تبدأ بمطلع مزدوج على قافية واحدة ثم نجد الأقفال بعد ذلك على شطر واحد من هذا المطمع ، وهذا لا نظير له في الموشح "32 ، مثال ذلك زجل متكون من فقرتين مركبتين كم جزأين ، أي أربعة أجزاء ، وأنت الأقفال مركبة من جزء واحد وهذا نادر ، كالزجل الذي مطلعته33 :

بمحيو وألف سهلا	جا الرسول من جبي أهلا
قال وكم ذا نعم أولى	قلت قل لي نعم أولا
وملا سمعي واملا	القفل الأول:
أعزل الراح وولى	القفل الثاني :

والخرجة :

سمتني في الجيد ما نعيد

هذا البناء لا يوجد في الموشحات ، "ويتشابه الموشح مع الزجل في التقفية الخارجية للأقفال ، إلا أن أجزاء الأقفال في الموشحة قد تأتي معقدة أو كثيرة على خلاف الزجل "34

5- الزجال ابن قزمان :

1.5 نسبه:

هو" أبو بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن عيسى بن قزمان الأصغر ينتسب إلى بيت ابن قزمان "35 حسب المستشرق انخل جنثالث بالنثيا فقد ولد في قرطبة بعد سنة 460هـ -1068م- وتوفي سنة 554 هـ -1160م- غير أن د.إحسان عباس حدد سنة ولادته سنة 480هـ وتوفي سنة 554هـ ورغم أن المؤرخون لم يتفقوا على سنة ولادته إلا أنهم أجمعوا على مكان ولادته وهي مدينة قرطبة وينتسب إلى عائلة عريقة تكنى بابن قزمان "وقد أخلطت بعض الكتب وبعض الدارسين بينه وبين أبي بكر محمد بن عبد الملك بن عيسى - الأكبر- وهو عم الزجال "36 وكان عمه "وزير المتوكل صاحب بطليوس وكان شاعرا أيضا وقد توفي سنة 507 هـ -1114م- كما بين الأستاذ ليفي بروفنسال وقد مدح ابن رشيد الحفيد في آخر حياته"37 وقد لقب بابن قزمان الصغير للتمييز بينه وبين عمه .

يعد ابن قزمان إمام الزجالين في عصره لم يتفوق عليه أحد وقد نشأ وسط عائلة "عرفت بمكانتها العلمية العالية ، فلم يزلوا بين وزير وعالم ورئيس"38، وذكر د.عبد العزيز الأهواني أن ابن قزمان "كان طويل القامة ، أبيض الوجه ، أشقر اللحية ، أزرق العينين ، وهذا قد يوحي بأنه كان جميلا "39، إلا أن" ابن سعيد يذكر في ترجمة زهون الغرناطية أن ابن قزمان كان قبيح المنظر وأنه لبس مرة غفارة صفراء فرأته زهون ، وقالت له : أصبحت كبقرة بني اسرائيل ولكن لا تسر الناظرين"40 ، وقد كان لابن قزمان مكانة أدبية كبيرة أكثر من غيره من الأدباء والشعراء لأنه كان يمتاز بالطموح "فراح يأخذ من كل علم بطرف حتى اهتدى إلى الزجل فتفرغ له ونبغ فيه ، حتى أصبح شيخا للزجالين وإمامهم ، وسرعان ما أخذت أزجاله بالانتشار في المدن الأندلسية، ولم تكتفي بذلك ، بل أخذت في الانتشار في المشرق العربي أيضا "41

2.5 ديوانه:

يضم ديوان ابن قزمان " تسعة وأربعين ومائة زجل كل زجل منها يتكون عدا الخرجة - من أبيات متساوية في عدد الأغصان - وهو يلتزم هذا النظام في كل زجل" ، ويعد من أهم الأعمال الأدبية التي أثارت اهتمام الدارسين والباحثين الأجانب من بينهم المستشرق الاسباني فيديريكو كوريني الذي أصدر تحقيق بعنوان ديوان ابن قزمان نصا ولغة وعروضا سنة 1980 وقدم لأول مرة نص الديوان بلغة عربية وقد دراسة باللغة الاسبانية ، وحققه كذلك المستشرق الاسباني إميليو غرسيه غوميس سنة 1972 ، بعنوان " كل ما يتعلق با بن قزمان " ويعد من أهم الدراسات التي تناولت الديوان.

أما عربيا فقد اقتصر اهتمام الباحثين العرب على د.رضية إحسان الله سنة 1999 تحت عنوان الكامل في ترجمة ابن قزمان إمام الزجالين ، حيث قدمت دراسة عامة حول ابن قزمان ، ودراسة موجزة في الأغراض الزجلية ، ثم تحقيق للديوان .

يبدأ ابن قزمان الجزء الأول من أزجاله بالتغزل ، وهو مطلع الزجل الذي يحتوي على أول موضوعاته ، ولا بد أن يكون في أمر عام أو تقليدي ، وينبغي أن يصاغ في قالب سهل خفيف فكه ، ويغلب أن يكون موضوعا جنسيا أو خمريا أو سُخرا من المجتمع ، لا هو بجارح ولا هو بمثير ، وإنما مبتدل لا تحفظ فيه ، أما الجزء الثاني من الزجل يسمى المديح فيتغنى فيه ابن قزمان بفضائل من يهدي إليه الزجل.

6- الخصائص الأسلوبية لأزجال ابن قزمان :

1.6 المستوى الصوتي :

1.1.6 الوزن :

اشتقت أوزان الزجل من العروض العربي ، ويرى د. ابراهيم أنيس " أنها نظمت من البحور القديمة ، ومن أوزان جديدة مشتقة من الأوزان القديمة ، وتشترك معها في الروح الموسيقي العام الذي ينتظم كل كلام منظوم في اللغة العربية "42 وتتميز أزجال ابن قزمان بتأثرها بعروض الموشحات ، ومن أقوى الدلائل التي تدل على تأثر عروض الزجل بعروض التوشيح أن بعض الزجالين وفي طليعتهم ابن قزمان كانوا ينظمون أزجالا يعارضون بها بعض الموشحات المشهورة ويقلدونها في

شكلها الخارجي وبنائها العروضي وقد اعترف ابن قزمان في بعض أزجاله بأنه نظمها على عروض بعض الموشحات المشهورة .

2.1.6 القافية :

مثلما تميزت الموشحات عن الشعر التقليدي بتعدد القوافي، فإن الأزجال أيضا سارت على نفس النهج ، ومن الأمثلة على تعدد القوافي في أزجال ابن قزمان :

بَعْدَ مَا قَالَ أَهْ تُمَّ نَدَمٌ
لِسْ لَهُ السَّاعَةَ مِنْ عَذَابٍ إِثْمٌ
قَالَ أَهْ وَقُلْ لَا بَعْدَ ذَلِكَ
وَحَلْفٍ إِنْ لَمْ يَقُلْ كَذَلِكَ
وَجَدَ مَا دَرَى فَمِنْ جِنْدَاكَ
لِسْ نَصْدُقْ مَلْحٌ إِذَا قَالَ نَعَمٌ
ثُمَّ قَالَ لِي وَهِيَ عَلَيَا أَشَدُّ
لَيْلَةَ ذَا وَذَا يَكُونُ الْوَعْدُ
وَأَنَا قَدْ رَيْتُ خَلْفَ وَعْدٍ بَعْدُ
إِنْ أَيَّامٌ قَبْلَ وَعْدٍ تَتِمُّ
أَوْ ذَاتِي فِي بَحْرِ هَجْرٍ نَقُومُ
لَا جَعَلَكَ اللَّهُ عَاشِقًا مَحْرُومًا
يَا اللَّهُ يَا أَنِي أَنَا مَظْلُومٌ⁴³

نلاحظ في هذه القصيدة أن الأفعال متحدة في التقفية مختلفة في الأجزاء فالقفل الاول والذي يسمى المطلع جاءت قافيته مقيدة رويها الميم الساكنة ثم تلاها البيت مكونا من ثلاثة أجزاء قافيته مطلقة رويها الكاف المتحركة ثم قفل ثاني بجزء واحد قافيته مقيدة رويها الميم الساكنة ثم بيت آخر بثلاثة أجزاء قافيته مقيدة رويه الدال الساكنة وأخيرا القفل الأخير وهو الخرجة بقافية مقيدة رويها الميم الساكنة متكون من أربعة أجزاء .

وكثرة القافية في أزجال ابن قزمان يعود إلى اللهجة العامية التي يكثر فيها التسكين ، ويعود السبب أيضا إلى إصرار الشاعر أو الزجال على استخدام هذه القوافي ليظهر فصاحته وبراعته ومقدرته اللغوية.

2.6 المستوى التركيبي :

1.2.6 الأساليب الإنشائية :

استخدم ابن قزمان الأساليب الإنشائية بكثرة في أزجاله مثل النداء في قوله :
يا سيد الدنيا ابدل حاله واعطيني ما ننفق في ذي

البطالة44

وجاء النداء هنا موجها للحاكم يفيد الاستغاثة وطلب المعونة لمواجهة أزمة البطالة التي تعصف به ، كما استخدم أيضا الاستفهام في قوله :

كيف يكون عز دونك أو بقيا سنكرر عسى تكون لقييا45

وجاء لإفادة التعظيم ، هو يعظم ممدوحه ابن زهر ويؤكد أن لا عز له إلا بوجود ممدوحه ، ومن بين الأساليب الإنشائية التي استخدمها أيضا الأمر في قوله :

يا زمان افتك واعمل ما بدا لك

مات أبو القاسم شمسك وهلالك

تقطع أيامك بعقررجالك

هذه أخلاق وهذه مقطوع46

فأفعال الأمر (افتك ، اعمل) خرجت عن معناها الأصلي لتفيد التحسر على وفاة أبي القاسم ، فهو يأمر الزمان أن يفعل ما بدا له لأن شمس وهلاله قد رحل ولم يعد للدنيا طعم ولا مذاق .

2.2.6 الصورة الفنية :

استخدم ابن قزمان بكثرة الصور الفنية لإيصال أفكاره وأحاسيسه إلى المتلقي ، كالتشبيه والاستعارة وكالعادة استخدم التشبيه للمدح في قوله :

سبحان من قد كساك ثياب الجمال مليح مشاكل كأنو الشمس أو هلال47.

فشبه ممدوحه بالشمس والهلال في نوره وجماله ، والاستعارة في قوله : (القتال ساكت والحديد يستغيث)

وقد وردت في مدح القائد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ، فقد شبه القتال بإنسان ساكت والحديد بإنسان يستغيث ليثني فيها على قوة جيش ابن تاشفين وبسالته في أرض المعارك .

3.6 المستوى الدلالي والمعجمي :

عرفت الأندلس بجمال طبيعتها الساحرة التي ألهمت الشعراء ففتنوا في وصف الحداثق ، والأنهار، والوديان، والحقول الخضراء ، وابن قزمان كغيره من الشعراء سلبه جمال الطبيعة فاسترسل في توظيفه لغرض المدح أو التغزل وقد كان معجم الطبيعة طاغيا على أزجاله ، من حقولها الدلالية (الأزهار، البحار، الأشجار. النجوم. الشمس الهلال ... الخ).

من الأزهار وظف الريحان في قوله: (ريحانة الجلوس زين المحافل) لوصف جمال محبوبه ، وأيضا العكروالجلنار وهي من أنواع الأزهار في قوله :
جات على البغي والمرغوب في الاختيار كذا مشبه بالعكر

والجلنار48

وذلك للتغزل في جمال شفتي محبوبته الحمراء كلون هذه الأزهار ، والبحر في قوله:

فكل شي سوى الموت عندي يسهل مثل البحرة العاشق أن هال

يقتل49

واستخدم كذلك معجم الحيوانات وحقوله الدلالية (الغزال ، الجراد الخ) الغزال مثل قوله: (هو سيد الغزلان والغير علاله) لمدح محبوبه و استخدم الجراد أيضا : (وقعوا تحت سيفُ مثل الجراد) للدلالة على كثرة القتلى الذين سقطوا تحت سيف ابن تاشفين .

7- الخاتمة :

في نهاية هذا البحث يمكن الخروج بالنتائج الآتية :

1- الزجل فن أندلسي النشأة تم استحدثه بعد الموشحات ينظم باللغة العامية ، ولا يراعى فيه قواعد الإعراب .

- 2- مر الزجل قبل نضوجه بمراحل مختلفة ، إلا أنه لم يزدهر إلا في عهد ابن قزمان وذلك عند قيام دولة المرابطين في نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس الهجري ، بسبب تراجع اللغة الفصحى لأن المرابطين كانوا من البربر.
- 3- تأثر الزجل كثيرا بالموشحات وقلدها في أجزاءها وتراكيبها إلا أننا لا ننكر دور الأغنية الشعبية في نشأة هذا الفن .
- 4- يختلف الزجل عن الموشح في اللغة ، فالزجل يكتب بلغة عامية بينما الموشح يكتب بلغة فصحي ، إلا أنهما يتشابهان في لغة الخرجة التي غالبا ما تكون بلغة عامية أو أعجمية .
- 5- يتشابه الزجل والموشح في البناء حيث يبني كل منهما على المطلع -إن وجد- والأقفال والأبيات والخرجة ، إلا أنهما يختلفان في عدد الأجزاء ، حيث أن عدد الأجزاء في مطلع الموشح هي نفسها في الأقفال على عكس الزجل ، حيث تختلف الأجزاء بين المطلع والأقفال.
- 6- تتميز أزجال ابن قزمان بتأثرها بعروض الموشحات التي تعرف بتحررها من عروض الشعر العربي .
- 7- عمد ابن قزمان إلى التنوع في القوافي بطريقة فنية رائعة ، حيث جمع بين أكثر من قافية في زجل واحد.
- 8- كان للأساليب الإنشائية دور كبير في أزجال ابن قزمان ، وكان أكثرها حضورا أساليب النداء والإستفهام والأمر
- 9- الصورة الفنية لابن قزمان مستمدة من بيئته الأندلسية التي تميزت بجمال الطبيعة ومن ثقافته الواسعة
- 10- أخذ معجم الطبيعة حيزا واسعا من معاجم ابن قزمان ، فكان أكثرها حضورا وكذلك معجم الحيوانات .
- الهوامش:

1 لويس معلوف ، المنجد في اللغة ، دارالمشرق ، ط33 ، بيروت ، 1992 ، ص294.

2 ابن منظور ، لسان العرب ، دارصادر ، (د.ط.) ، بيروت ، (د.ت) ، مج11 ، ص302.

- 3 صفي الدين الحلي: العاقل الحالي والمرخص الغالي ، تحقيق : حسين نصار، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، ط2 ، القاهرة، 2003 ، ص 5.
- 4 ابن خلدون ، المقدمة ، تحقيق :أم.كاترمير ، مكتبة لبنان عن طبعة باريس ،(د.ط) ، 1858 ، بيروت ، مج3 ، ص411.
- 5 ابراهيم أنيس ، موسيقى الشعر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط2 ، القاهرة ، 1952 ، ص 231.
- 6 فوزي سعد عيسى ، الموشحات والأزجال الأندلسية في عصر الموحدين ، دار المعرفة الجامعية ،(د.ط) ، الإسكندرية -مصر- ، 1990 ، ص 139.
- 7 محمد عباسة ، الموشحات والأزجال الأندلسية وأثرها في شعر التروبادور ، دار أم الكتاب للنشر والتوزيع ، ط1 ، مستغانم (الجزائر)، 2012، ص 105-106
- 8 عباس الجراري ، الزجل في المغرب ، منشورات مكتبة الطالب ، (د.ط) ، الرباط -المغرب- ،(د.ت) ، ص 46
- 9 عبد العزيز الأهواني ، الزجل في الأندلس ، معهد الدراسات العربية العالمية ،(د.ط) ، 1957 ، ص 53
- 10 مصطفى الشكعة ، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ، دار العلم للملايين ، ط4 ، بيروت ، 1979 ، ص 448.
- 11 إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين ، دار الشروق ، ط2 ، عمان ، 1997 ، ص 206.
- 12 عبد العزيز عتيق ، الأدب العربي في الأندلس ، دار النهضة ، ط1 ، بيروت ، 1967، ص 397
- 13 أبو بكر ابن قزمان ، الديوان ، تحقيق :فيدريكو كورينتي ،المعهد الإسباني العربي للثقافة ، (د.ط) ، مدريد ، 1980 ، ص3.
- 14 نفس المصدر ، ص 3
- 15 صفي الدين الحلي ، العاقل الحالي والمرخص الغالي ، ص 17.
- 16 المقري ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق :يوسف الشيخ محمد ، دار الفكر ، ط1،بيروت،1986، ج 4 ، ص 365.
- 17 ابن خلدون ، المقدمة ، ص 404.
- 18 فوزي عيسى ، الموشحات والأزجال الأندلسية في عصر الموحدين ، ص 139.
- 19 مصطفى الشكعة ، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ، ص 447.
- 20 جودت الركابي ، في الأدب الأندلسي ، دار المعارف ، ط1،مصر ، 1960 ، ص 52.
- 21 ابن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق :إحسان عباس ،دار الثقافة ، (د.ط) ، بيروت ، 1997، مج 1 ، ص 469.
- 22 أنغل جونثالث بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة : حسين مؤنس ، تقديم: سليمان العطار ، المركز القومي للترجمة ،(د.ط) ، القاهرة ، 2011 ، العدد 1770 ، ص 174.
- 23 نفس المرجع ، ص 189.

- 24 محمد عباسة ، الموشحات والأزجال الأندلسية وأثرها في شعر التروبادور ، ص 112.
- 25 إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين ، ص 208.
- 26 شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، دار المعارف ، ط11 ، القاهرة ، (د.ت) ، ص 454.
- 27 عبد العزيز الأهواني ، الزجل في الأندلس ، ص 52.
- 28 صامويل ستيرن ، الموشح الأندلسي ، ترجمة وتقديم : عبد الحميد شيحة ، مكتبة الآداب ، ط1 ، القاهرة ، 1990 ، ص 98.
- 29 نفس المرجع ، ص 99.
- 30 إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين ، ص 212.
- 31 فوزي عيسى ، الموشحات والأزجال الأندلسية في عصر الموحدين ، ص 177.
- 32 عبد العزيز الأهواني ، الزجل في الأندلس ، ص 46.
- 33 أحمد محمد عطا ، دراسات في فني الموشحات والأزجال ، مكتبة الآداب ، ط1 ، القاهرة ، 1999 ، ص 39.
- 34 نفس المرجع ، ص 40.
- 35 أنخل جونتالث بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ص 191.
- 36 إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين ، ص 213.
- 37 أنخل جونتالث بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ص 191.
- 38 ابن سعيد الأندلسي ، المغرب في حلى المغرب ، تحقيق : شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط4 ، بيروت ، ص 167.
- 39 عبد العزيز الأهواني ، الزجل في الأندلس ، ص 105.
- 40 إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين ، ص 214.
- 41 شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص 461.
- 42 ابراهيم أنيس : موسيقى الشعر ، ص 231.
- 43 ابن قزمان : الديوان ، ص 56.
- 44 نفس المصدر ، ص 610.
- 45 نفس المصدر ، ص 70.
- 46 نفس المصدر ، ص 216.
- 47 نفس المصدر ، ص 26.
- 48 نفس المصدر ، ص 254.
- 49 نفس المصدر ، ص 256.